مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN2543-3857
ISSN :

المجلد05/ العــدد: 02 (2021)، ص
92 -74

حدود المكان المعرفية – قراءة في المفاهيم –

Cognitive space boundaries - reading in concepts-

د طيب حمايد Tayeb Hemaid[1]
[1] جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس (الجزائر)
د طيب حمايد Tayeb Hemaid الإيميل: tayebhemaid@gmail.com

ملخص:

يتناول هذا البحث حدود المكان المعرفية من خلال رصد المفاهيم اللغوية والاصطلاحية (المكان في القرآن الكريم ، المكان الفلسفي ، المكان الفني) إضافة إلى تحديد التماثل والتباين مع المصطلحات المقاربة له كالفضاء والحَيّز ، ومنه تستوقفنا الاشكالية : كيف نظّر اللغويون والنقاد لمفهوم المكان ؟ وما جوهر التباين بين المكان والمصطلحات المقاربة له ؟

ومن خلال هذه الدراسة يتضح أن الفضاء أوسع نطاق من المكان والحيّز ؛ لكونه يشمل كل الحدود التشكيلية في التصوير الأدبي ، أما المكان فهو أقل حِدّة من حيث رقعته الدلالية نظرا لجزئيته ، أما الحيّز فمنغلق من حيث الشكل باعتباره صورة منعزلة تتجسد في الأعمال الأدبية على اختلاف فروعها و أجناسها .

كلمات مفتاحية: المكان ، المكان الفلسفي ، المكان الفني ، الفضاء ، الحيّز .

Abstract:

This research deals with the limits of the cognitive place by monitoring linguistic and conventional concepts (place in the Qur'an, philosophical place, artistic place) in addition to determining symmetry and contrast with the terms approaching it such as space and space, from which we stop the problem: how did linguists and critics look at the concept of space?

What is the essence of the difference between the place and the terms approaching it?

Through this study it is clear that space is wider than space and space, because it includes all the plastic boundaries in literary

photography, but the place is less severe in terms of its semantic area due to its part, but the space is closed in form as an isolated image embodied in literary works of all branches and races
Keywords: Place, philosophical place, artistic place, space, space.

1. مقدمة:

تتوالى الأزمنة وتتباين الأمكنة وفق تيارات تشق طريقها محددة التوجهات الاجتماعية على اختلاف فروعها وتفرعاتها التي ألزمت على الإنسان البحث في كنه الوجود لرسم خارطة تنير له حياته وتقيده من حيث التأصيل الجذري الذي ينشأ عليه ، وبذلك فإن المكان يرتبط ارتباطا وثيقا بالتوجه الفكري والعقائدي المرهون بالفلسفة التأملية التي تمليها عليه الرؤى المعاصرة المبنية على الاختلاف .

مفاهيم حول المكان .

1- المكان في المعاجم العربية :

ورد في بعض المعاجم اللغوية على أن المكان هو الموضع ، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة وأماكن جمع الجمع ، قال ثعلب : يبطل أن يكون مكانا فعالا لأن العرب تقول : كن مكانك ، وقم مكانك ، واقعد مقعدك ، فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه([1]) .

ويذهب الليث إلى أن المكان في أصل الفعل تقدير الفعل مفعل ، لأنه موضع لكينونة الشيء فيه، غير أنه لما كثر أجروه في التصريف مجرى فعال ، فقالو : مكنا له وقد تمكن والدليل على أن المكان مفعل أن العرب لا تقول في معنى هو مني مكان كذا وكذا إلا مفعل كذا كذا بالنصب ([2]).

كما جاء في مفهوم آخر على« أنه الموضع الحاوي للشيء ، وعند بعض المتكلمين أنه عرض ، وهو اجتماع جسمين حاوي ومحوي ، وذلك لكون الجسم الحاوي محيطا بالمحوي ، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين وليس بالمعروف في اللغة» [3] .

والمكان« اشتقاقه من كان يكون ولكنه لما كثر في الكلام صارت الميم كأنها أصلية[4] »

وأشير إليه في رأي آخر عند الحكماء وهو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس الظاهر للسطح من الجسم المحوي ، وعند المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده .

وقيل المكان « مكان الإنسان وغيره والجمع أمكنة ولفلان مكانة عند السلطان أي منزلة[5]» .

ومنه يتضح أن المعاجم العربية قد توافقت لحد كبير في التشكيل اللغوي لمفهوم المكان ، وهذا من خلال تشريح الحروف : الميم ، الكاف ، الألف ، والنون ، والتي اسندت إلى أوزان الكلمة ، لإعطاء بعدها الاشتقاقي المتمخض من خلال تعاقب هذه الحروف وحركاتها ، وهذا ما يعكس ثراء لغتنا من حيث المفاهيم والدلالات .

2- المكان في القرآن الكريم :

يصور لنا القرآن الأمكنة على اختلاف أشكالها وألوانها وتباينها من حيث الترتيب الزمني للعصور ، حيث يتجلى هذا التصوير في مختلف آيات الذكر الحكيم سواء كان هذا مجازيا أو مباشرا بصريح اللفظ فقد وردت لفظة المكان في قوله عز وجل : ﴿ واذكر في الكتاب مريم اذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ﴾[6].

وقوله تعالى : ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾[7]

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب﴾[8]

لقد توغل الأسلوب القصصي إلى أعمق التصورات المشهدية التي أدخلت المتلقي صلب التشكيل اللغوي القائم على الإعجاز ، لذلك نجد أن المتتبع لآيات الذكر الحكيم ينصهر مع القصص الدينية وكأنه يعايشها يرسم في خياله تلك الحدود والأبعاد ويتخيل بعض المواقف التي تبقى راسخة في ذهنه جراء جمالية السور القرآنية التي تطبع أثارها على من يفتش في خبايا وسحر هذا الأسلوب الفني لذلك« يستند التشكيل المشهدي في إطار تنظم فيه العناصر المشهدية في خضوعها إلى توزيع خاص داخل الحيز المشهدي فيكون منها ما نشاهده من توزيع للعناصر التصويرية داخل اللوحة الزيتية في محافظتها على التوالي والأهمية والنسب»[9]. فهذا التصوير ألقى بضلاله على دعائم أنماط المكان التي تختلف من عنصر لآخر وألبسه حلة متعددة الألوان لما يعتريه تشكيل

الحدود والأطر من إشارات تجسد هذا التصوير الفني والخيالي الذي يحاول المتلقي التفاعل معه والانصهار في فحوى استخلاص العبرة من القصص القرآنية .

إلا أن المكان في القرآن الكريم ظل متشبثا بالإطار الزمني من حيث البناء ، وذلك لتوافقها الكبير في رصد التصوير الإيحائي المنغمس في المفردات التعجيزية التي أثرت القيم الفنية والجمالية لهذا التصوير البنائي والدلالي الذي تتغير معالمه بتغيير سبل المشاهد الحركية في التصوير القرآني «لأن المكان والزمان إذ يحتضنان هذه الحركات لا يفعلان ذلك في سلبية تامة وكأنها الأرضية التي يقف عليها الحوار فقط بل نجد في المسرح كيف يقوم الديكور عونا على تمثيل الأدوار وتجلية دلالتها فتغير الديكور معناه أن المكان الذي كان من قبل لم يعد صالحا لاحتواء الحدث والحوار والمشاعر بل يجب تغييره إلى ما يناسب المستجد في العرض»[10] وهذا ما نلمسه في الأسلوب القرآني الذي فصل وشرح المكان الذي قدمه في صورته الواقعية التي استلهمت معالمها من السرد الفني والجمالي للأسلوب القصصي ، لذلك فإن المكان أضحى النواة المركزية والمنبع العذب الذي تسقى منه الأعمال الأدبية والفنية لما يعتريه من تأثير في النفس البشرية التي تفعل فعلتها بالمكان ، الذي أحكم قبضته على الأبعاد الدلالية التي تحاول إيجاد تفسيرات موازية لهذه التشكيلات والأطر المنبعثة من أثر التقليد والتجديد والمزج بينهما .

3- المكان الفلسفي :

يعد المكان النواة التي تسقى منها الحضارات والأمم ، والمرجعية للجذور التاريخية التي لا يمكن فصلها عن هذا النطاق ، لاسيما في ظل الانقسامات السياسية والاجتماعية التي أضفت عليه طابع التعدد في الفكر و الأطر .

ويتضح المفهوم الفلسفي للمكان على أنه : «هو المكان الأليف الذي ولدنا فيه ، أي بيت الطفولة ، إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكل في خيالنا ، فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة ، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور»[11] الذي أضحى العمود الفقري لتحديد الأفكار والتوجهات على اختلاف ميادينها ، وهذا ما انعكس

على التصور الخيالي الذي يتمناه كل شخص دون الرجوع الى طمس الذات وتجريدها من واقعها الذاتي والخاص .

كما يعد المكان التيار الذي يولد الحركة بين الشعوب ، والسفينة التي تبث القيم والمعتقدات ، سواء شملت التفتح الفكري أو النفسي للتركيبة الإنسانية« ومن هنا كان للمكان في حياة الإنسان قيمته الكبرى ومزيته التي تشده إلى الأرض ، ولا عروا فالمكان يلعب دورا رئيسيا في حياة أي إنسان ، فمنذ أن يكون نطفة يتخذ من رحم الأم مكان يمارس فيه تكوينه البيولوجي والحياتي ، حتى إذا حان المخاض وخرج هذا الجنين يشم أول نسمة للوجود الخارجي كان المهد هو المكان الذي تتفتح فيه مداركه وتنمو فيه حواسه من بصر وشم وذوق وسمع ولمس»[12] ، ليكون ذاته ويرسم حياته جاعلا منها المتنفس الوحيد الذي يفجر فيها طاقاته ويزخرف فيها إبداعاته ويمجد فيها خياله ويقوم معوقاته متجاوزا بذلك كل الحدود التي من شأنها أن تعكر صفو مزاجه وتعرقل سبل طموحاته .

يصنع الخيال مكانا في الصورة الذهنية سواء سلبية أو إيجابية انطلاقا من طبيعة الفرد التي تحتم وضع قيود وهمية مماثلة للأفكار الخيالية التي ينسجها مستغلا شروده العقلي في حالة المبادرة ،«يضاف إلى هذا العناصر المكانية التي يتم تقديمها من خلال فكرة تعليق القراءة التي تجعل المتلقي يستعيد تجربة مكانه الأليف وينطلق هذا كله من فكرة ديناميكية الخيال ، أي أن الصورة الفنية والمكان الأليف ، والذكريات المستعادة ليست معطيات ذات أبعاد هندسية بل مكيف بخيال وأحلام يقظة المتلقي»13 ، غير أن هذا التصور يبقى محدودا في حالة تجسيده على أرض الواقع ؛ لأن الخيال في صورته المجملة يبقى نظريا من حيث الحدود وطبيعته الهندسية المرجعية للمكان ، فهو ذلك الجزء الوهمي المنغمس في طرف الواقع المجهول ، الذي يعكس أطره المتباينة مفسرا الذوق الخاص ومغيرا اللون العام .

إن الغوص في المفهوم الدلالي للمكان يجعله «في حالات كثيرة ليس حيزا جغرافيا فقط ، فهو أيضا البشر ، والبشر في زمن معين وهكذا انكشفت علاقة جدلية بين عناصر متعددة متشابكة ومتفاعلة ، فالمكان يكتسب ملامحه من خلال البشر الذين عاشوا فيه ، والبشر هم تلخيص للزمن الذي كان وفي مكان محدد بالذات، وبالتالي فقد اكتسب الناس ملامح وصفات أثروا في المكان

والزمان » [14] ،وصنعوا منه مراكزا للنحت والمعمار لترسيخ المقتطفات التاريخية التي يتوارثها الأجيال على مر العصور .

والاختلاف الموجود في التشكيل المكاني يفسر هذا التفاعل ويحدد الأصول العرقية من خلال رصد هذه الحدود والبحث في مميزاتها وأسرارها ، و انتقاء مواقعها والآثار المزاولة لها والتناغم المتسلسل في المحاكاة لهذه التوجهات التي تعيد إيقاظ الماضي والذات المؤرخة له .

إن المتتبع لمفهوم المكان يدرك حقيقته من حيث البناء الشكلي والهندسي له ، لما يضفيه من سمات سطحية في ظاهره ، فهذه الميزة تمهد لدراسة دلالته وأبعاده التي تتعدى أحيانا الأبعاد الميتافيزيقية ، إلا أنه «قد تكشف الدراسات عن معاني أخرى يمتلكها المكان الجغرافي ، كاكتساب القيم الاجتماعية نعوتا مكانية للدلالة على سموها ومكانتها وجدارتها ، فالشريف والوضيع والعالي والمنيع والصغير والكبير أوصاف يجسدها البصري ، ويحدد حدودها شكلا ومضمونا »[15] ليحدد أطر هذا الحيز من حيث النطاق الإيديولوجي له ، ويفسره تفسيرا ذاتيا وفق الرؤى والنظريات المسطرة ذات الدلالات المحدودة .

يحدد المكان بطابعه الجغرافي والموقع المنتقى من طرف الذات البشرية التي تنحت فيها مختلف المعتقدات والثقافات على اختلاف طبوعها ، إلا أن هذا التوجه يبقى جافا ومبتورا لإلغائه الجوانب الفنية والجمالية التي تزخرف مفهومه الدلالي لا الشكلي الذي ينحصر في الزوايا المادية .

يرتكز المبدع على مرجعية المكان في ترسيخ ثقافته وتفجير طاقاته ، لما ينجر عنه من صراعات نفسية تكون إما سلبية أو ايجابية حسب إطارها الزمني الموازي لطبيعة المكان الذي «يتخلص بأنه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه » [16] ليغير بعض التوجهات العقيمة المنطوية تحت لواء التشبث بالماضي المجرد الخالي من قيم المبادلات والنظريات الخيالية التي أفرزها هذا التفاعل ، وقضى بذلك على التصور الحسي الملموس المتمثل في الحدود المرئية التي تصوغ محدودية الفكر وتبقيه أسير الظاهر ، منقطعا بذلك عن الأطر الفلسفية المتمخضة عن هذا الصراع والتصادم لتفسيره وفق تمازج الواقع بالخيال .

وقد قام مول وروميو بتقسيم المكان إلى أربعة أماكن حسب السلطة :

1 – المكان الأليف الذي نمارس فيه سلطة خاصة .

2 – مكان نخضع فيه لسلطة الآخرين مع الاعتراف بالسلطة .
3 – المكان العام وهو ملك للسلطة الحاكمة .
4 – المكان الامتناهي : وهو المكان الخالي من الناس حيث لا يخضع لأي سلطة([17])

إلا أن هذا التقسيم لم يعط الصورة المجملة لحدود المكان لأنه استند على عنصر المنطق وتجرد من فروع الخيال التي تعد المرجعية الفنية للتشكيل المكاني للصورة الفنية مهما كان مؤسسها ، وهذا سبب التباين في وجهات النظر والثقافات المتداخلة والتوجه الفكري والفلسفي .

يستند التفسير الفلسفي لطبيعة المكان على العوامل الميتافيزيقية التي يحاول الإنسان تجسيد البعض منها على أرض الواقع ،«يضاف إلى هذا أن العناصر المكانية يتم تقديمها من خلال فكرة تعليق القراءة ، أي تجعل المتلقي يستعيد تجربة مكانه الأليف ، وينطلق هذا كله من فكرة دينامية الخيال ، أي أن الصورة الفنية والمكان الأليف ، والذكريات المستعادة ليست معطيات ذات أبعاد هندسية ، بل مكيف بخيال وأحلام يقظة المتلقي »[18] ؛ لأن هذا التفاعل منغمس في المتاهات الخيالية التي تعطي لونا من التأمل النفسي لنسج الحدود المكانية ولفها بين ظاهر الواقع وباطن الخيال .

ومن هنا يتضح وجود التفاعل والتناغم بين الواقع الهندسي بأبعاده الحسية البصرية ، والتصور الخيالي المنبعث من الأفكار والتأملات الفلسفية بإعطاء المكان حدود هندسية ممزوجة بلون من ألوان الخيال .

تتلاشى العلاقات الداخلية في ظل توسع النطاق الخارجي للمكان ، فلا تكاد تتضح هذه العوامل حتى ينفجر الإطار المرجعي وتكون للصورة عراقيل لزعزعة هذا التشكيل ، لذلك « يرى برادلي أن المكان كوحدة تستحيل معرفته في الواقع المباشر على أساس أن معرفتي بالمكان الذي أوجد فيه معرفة محددة بعناصر الإدراك الحسية المكانية وهي الحدود والتخوم ، Boundaries ، حيث تتوقف معرفتي بمكاني الخاص الواقعي عند دائرة الأفق ولا يمكن أن أتخطى حدود هذه الدائرة ، وبالتالي ليس في قدرتي إدراك ومعرفة المكان الكلي بطريقة مباشرة »[19] ؛ لأن هذا يفرض بناء جسر تواصلي بين الأمكنة في حد ذاتها لكسر هذه القطيعة ، مما يسمح بإعادة النظر في هذا المنظور ومحاولة

صياغته في قالب جديد متناسق المعاني والدلالات التي تساهم في لم شظايا هذا الافتراض .

تعد العناصر الظاهرية ضمنيا مشكلة لحدود المكان إذا ما توافقت مع الإدراك الخيالي المقابل له في المفهوم قصد استئصال المعنى المقارب للرؤى الدلالية ، «وهكذا إذا حاولنا أن نعتبر المكان يتألف من أجزاء سنجد العلاقة تدخل بالضرورة بين هذه الأجزاء ، أما إذا اعتبرنا المكان شيئا كليا أو وحده فلن يمكن إدراكه ، وكذالك لا بد أن يحصل على حدود أو تخوم ، لكن هذه الحدود أو التخوم هي نفسها ليست مكانية وهي كذلك ليست كلية ولذلك فهي لا توجد على نحو مكاني مدرك ، بل هي مجرد علاقات مكانية بين تخوم نتوهم وجودها » [20]؛ لأن إدراكها يكون جزئيا في ظل أحادية العلاقة التي لا يمكن تفسيرها من هذا المنطق ، لذلك كان لزاما ربط المعايير المكانية بأخرى مكملة لها قصد إدراكها من زاوية أوسع ، لتجاوز هذا التناقض القائم على مبدأ الظاهر والباطن ، وتثمين الازدواجية من حيث الطرح العام والخاص .

يصور المكان على أنه الحقل الذي يقتات منه الإنسان ويصور منه أنماط حياته خاصة النفسية والاجتماعية مرتكزة على إدراك أشكال المكان وسلاسة التفاعل معه ، إلا أن« هناك تعارض شائع بين المتسع الذي يرتبط بالفقر والفراغ والبرودة وهو مكان يوحي بذوبان الكيان وتلاشيه ، فالإنسان يتيه فيه وتفقد نفسه ، وبين المكان الضيق الذي يرتبط بالدفء والألفة والحماية حيث يتم التعارف بين الناس »[21] ؛ لأن المكان الضيق ينعكس سلبا على المكتسبات الفنية والثقافية للإنسان ويقوم بجرد الطموح الخيالي ، فهو عبارة عن متاهة مقوقعة تلقي بظلالها على التفسيرات والإدراكات الحسية منها ؛ لأنها قمعت كل أشكال الفكر الفلسفي القائم على النظرة التأملية .

أما بالنسبة للمكان المتسع فهو فضاء تسبح فيه الأفكار وتتجول فيه مختلف الأحلام ، لكسره طابوهات الانطواء التي تعاني منها الذات البشرية ، وهذا ما يتضح جليا من خلال الفروقات الحضارية التي رسخ لها التاريخ في طياته ، وفتحت أبواب أوسع لمختلف الحضارات والأفكار ، إلا أن هذا المنظور يبقى محدودا في ظل وجود بعض الحواجز التي تسد نشر هذه القيم الخيالية ولو بنسبة جزئية .

فلا بد من وجود تفاعل بين المكان الضيق والمتسع لإعطاء نوع من التوازن ؛ لأن المكان على اختلاف أبعاده متمسك بجوانبه الموضوعية «فلا يمكن البتة إدراك حقيقة الشيء إلا من خلال دراسة الوسط الذي هو كائن فيه ، والذي سيمتد منه جملة خصائصه التميزية التي تحدد صفاته وحدوده ، وطبيعة التبادلات القائمة بينه وبين عناصر وسطه ، ولهذه العلة اتجهت الدراسات الاجتماعية إلى البيئات المتحضرة والبدائية للكشف عن التفاعل المتبادل بينها وبين البنيات الذهنية للجماعات »[22] قصد رصد هذا التناقض ومحاولة إيجاد علاقة توافقية للحد من هذا الطرح وتقليم تداعياته .

يرتبط الواقع بتحديد أجزاء المكان ظاهريا لكونه مفسرا له ، ومخططا لأبعاده نظريا ، مما يسمح بانصهاره فيه من هذا الجانب «بناءا على هذا يندمج الامتداد الواقعي في نظام مكاني فردي مؤلف من علاقات مكانية متآلفة مع النظام المكاني نفسه ومع حدود الامتداد ، وهذا يعني أن كل ممتد يشكل نظاما للعلاقات المكانية ، وهو في حقيقة أمره يمثل النظام الفيزيقي المترابط بعلاقات مكانية متداخلة ، وهو نظام عالمنا المحسوس أو عالم الظاهر ، لكن إذا حاولت الأنظمة الفيزيقية أن ترتبط بالمطلق فلا بد لها أن تخرج عن علاقاتها المكانية وتتحد بالكلى بدون أي علاقة مادية ممتدة جزئيا »[23] ؛ لأنها لا تؤدي دور القيم المتكاملة لتفسير المكان من حيث الحدود والمفاهيم ، مما يجعل هذا التصور يدور في عجلة المألوف .

إن النظرة الفلسفية جعلت من المكان حلقة فارغة متقاربة في الأبعاد والإدراك ، لأنها مبنية على عنصر المراوغة والتشبث بين الظاهر الحسي والباطن الخفي ، وبالتالي حاولت تغطية هذا العجز عن طريق المزاوجة بين هذين الموقفين لإحداث توافق ولو جزئي يفسر هذه الأطر والتوجهات .

ولكن حتى وإن لم نجد تفسيرا مقنعا لهذا الموقف الفلسفي إلا أنه أعطى أبعادا ولو نسبية لحدود المكان لأنه مشبع بقيم نظرية تحتاج إلى تجسيد على أرض الواقع ، وإخراجها من المتاهة التي ظلت حكرا عليها في برمجة هذه المفاهيم ، ومحاولة التخفيف عن هذا التوجه ومسايرة الحركة الفنية والأدبية .

4- المكان الفني :

كثيرا ما ارتبط حضور المكان في الأعمال الفنية بالرواية التي نالت حصة الأسد في التوظيف وفي القراءات النقدية ، لاعتمادها على التصوير

وبراعة التشكيل من حيث الحدود وشعرية التواصل من حيث الدلالات ، فالمكان في العمل الفني شخصية متماسكة ومسافة مقاسة بالكلمات ورواية «لأمور غائرة في الذات الاجتماعية ولذا لا يصبح غطاءا خارجيا أو شيئا ثانويا ، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلا بالعمل الفني »[24] ؛ لأنه يؤثر ويتأثر به ، خاصة إذا حاول كسر الحواجز والسدود وإن كانت ضمنيا ، وهذا يولد قيما جمالية وفنية تتضح معالمها من خلال السرد وجمالية التلقي التي تختلف من شخص لآخر على اختلاف المستويات الثقافية والفكرية وحتى الاجتماعية .

تفنن الأدباء في وصف المكان بتصويره لإطاره الشكلي وإخراجه إلى الأسلوب الخيالي المطلق ، لما له من خلفيات على الذات البشرية التي انغمست في أطر هذا التصور وجعلت منه جسرا لسرد الحيثيات الجمالية المنجرة عن هذه الحدود « والمعروف أن المكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل ، أي أن الذي صنعته اللغة انصياعا لأغراض التخيل الروائي وحاجاته ، وهذا يعني أن أدبية المكان أو شعريته مرتبطة بإمكانات اللغة على التعبير عن المشاعر والتصورات المكانية ، مفضية إلى جعل المكان تشكيلا يجمع مظاهر المحسوسات والملموسات ، ومكونا من مكونات الرواية يؤثر فيها ويتأثر بها »[25] ، لكن هذا التخيل الروائي يأخذ بعدا ذاتيا من حيث المنظور العام على عكس وجهات نظر المتلقي الذي قد لا يوافقه هذه الأبعاد ، ويتعداها مثمنا جهوده الفردية التي قد تشمل آراء جديدة تتجدد كلما أعيد النظر في سياق ونسق هذا العمل الفني .

وتتصادم الآراء في إيجاد علاقات بين الأمكنة في العمل الفني ، خاصة إذا أسندت للمؤثرات النفسية ، لأنها تجبر المتلقي الغوص في خبايا ومستجدات الكاتب أو الشاعر مهما كان تصنيفه الفني ، ومهما تعددت العصور الزمنية التي قد لا تتضح معالمها جليا عند بعض المبدعين ، لتأثرهم بغيرهم ممن سبقوهم إلى هذا الفن ؛ لأن «كل مكان من هذه الأمكنة دلالة يحاكي شيئا ما في ذات الكاتب أو في الذات الاجتماعية ، لتصبح مؤثرة وفاعلة لا أماكن وعاء وأماكن اتكاء »[26] لتفجر بذلك حدود المكان الضيق ؛ لأنه ينعكس سلبيا على شخصية المبدع ويؤثر فيه تأثيرا جسيما ، سواء كان ذلك في طريقة السرد والوصف أو في أسلوب الفن والإبداع .

لذلك أصبح تداخل الأمكنة مع بعضها البعض من السمات المثلى في نجاح هذا التصوير الخيالي ، حيث ساهم بقسط كبير في مزج الأطر الشكلية ذات البعد الظاهر الملموس والدلالات الميتافيزيقية التي تتجلى في الغوص و ربطها بالخيال لإنتاج مكان آخر يرسم في عالم المثل الخيالي .

يتأثر المبدع في أعماله الفنية بحدود المكان التي ينتقيها من واقعه المعيش في تجربته الحسية ، إلا أنها تمر عبر تيار الشرود الذهني ورسم أماكن خيالية تكاد تكون لنفسها وجودا حقيقيا عبر الحدود المتمناة ، «ولهذا فإن الأماكن التي مارسنا فيها أحلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم يقظة جديد ، ونظرا لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة فإن هذه البيوت تعيش معنا طيلة الحياة »[27] كمرجعية لتأطير العمل الإبداعي والفني ، إلا أنها تتباين من حيث رسمها في الخيال خاصة في أحلام اليقظة ، التي تحاول نسج هذه الأماكن على أعلى المراتب والمثل ، والغياب بالذات ولو لبرهة حتى تصنع لنفسها مكان يليق بثقافتها الخيالية المنفصلة عن الوعي الواقعي الذي كبل طموحاتها وقلم تأملاتها المشروعة .

يتفاعل الإنسان مع محيطه باعتباره المرآة العاكسة لتجسيد قيمته الفنية ، لأن المكان رصد للمتغيرات سواء ثمنها الراوي أو الأديب في أعماله أو لمح إليها بدلالات مجازية ، غير أن هذه المنظومة تحتاج في بعض الأحيان لقيود مرجعية متنافرة أحيانا مع الذات البشرية ، لذلك« فإن الحكمة الكبرى وراء هذه المواقف كلها هي أن هؤلاء الأدباء العظماء كانت تشغلهم فكرة تغيير الحياة والمساهمة الفعالة في القضاء على العذاب البشري في أية صورة وبمقياس هذه الفكرة النبيلة المخلصة ، كان هؤلاء الأدباء يشكون في قيمة أدبهم وفائدته أمام مشكلات الإنسان الكبرى »[28] التي تمحورت أساسا حول طبيعة المكان ومدى تأثيره في بناء الشخصيات ، وتحديد المعالم الفلسفية المغربلة في أفق الخيال المشروع ، وهذا ما اتضح جليا في بعض الأعمال الفنية التي نثرت هذه الأفكار عن طريق التصوير الفني لها .

إن إدراك فعالية المكان من زاويته الأوسع يبقى جزئيا في ظل تضارب الآراء حول طبيعة الدلالات الهادفة التي يبثها الأديب في عمله الفني ؛ لأنه يبني ما شاء من أمكنة مستعملا لغته في وصف هذا الصرح الخيالي ، إلا أن المتلقي قد يشهد أمكنة أخرى غير التي يقصدها الأديب ، فهو في تلك اللحظة

يترجم الألفاظ والكلمات إلى مواد هندسية لبناء الخيال ماديا ، لذلك نجد الاختلاف في الصورة الذهنية المنبعثة من التباين في المستويات التعليمية الثقافية ، التي قد تفجر طاقات إبداعية أخرى لم تكن من نسج خيال الأديب في تصوره الهادف ، وبذلك نشهد ميلاد أمكنة أخرى وحركة إبداعية جديدة ، ضاربة موعدا لحراك نقدي أوسع وفاتحة مجالات أخرى للتنقيب عن مصادر الفن والإبداع بتشريح النصوص والأعمال الفنية بمختلف أشكالها وألوانها وفروعها الأدبية .

إن التغيير المفاجئ في أنماط المكان مكن الحياة الأدبية من قطف أنواع التصورات حيث ساهمت بشكل لافت للانتباه في حصد هذا التعدد ، وإسناده إلى الرؤى النقدية التي أصبحت تنبش كل كبيرة وصغيرة في القراءات المعاصرة خاصة ، « ولكن المسألة ليست بهذا القدر من الصرامة ، فالموجودات تغيرت نعم ، ومصالح الإنسان مع الموجودات المتغيرة قد تغيرت ،ولكن العبارة الأكثر دقة هي أن الإنسان قد وعى مصلحته وذلك أنها كانت قائمة ولكنه لم يكن واعيا بها »[29] ، فهذا التقلب الا إرادي في الأفكار فتح واجهات على الإدراك الدلالي للحيز المكاني الذي تجسد في الأعمال الفنية والأدبية خاصة الروائية منها ؛ لأنها عبارة عن نقل للغة وما تحمله من صور ظاهرية إلى معناها الذي يتبناه التصوير الخيالي الوهمي الذي ينبثق عن مرجعيات سابقة كل يفسرها على حدى وعلى نهج خاص وهذا ما انعكس على ميلاد مدارس نقدية جديدة .

إلا أن المكان ليس بالضرورة المرجعية الأساسية في تشكيل الأعمال الفنية ؛لأن بعض الأدباء يسعون في تصفح الأعمال الفنية إلى التقليد والمحاكاة وبذلك يذبحون عناصر بيئتهم ، فيستوردون أماكن جديدة غريبة عن مجتمعهم ، وبذلك يتجلى هذا التوجه في مؤلفاتهم والأساليب التي يكتبون بها ، وبذلك يبحر المكان في مجرات التأثر بالثقافات والأجناس الأخرى إلا أنه لن يحمل القيم الفنية التي قد يخبؤها التصوير الخيالي للرسومات الإبداعية الأصيلة لبيئة المبدع .

المعروف أن النجاح الأدبي مرهون بالتوفيق في حسن اختيار المكان وربطه بالموضوع المتفاعل مع طبيعته ، لما له من أهمية في التأثير على رسم الحدود الجغرافية من حيث الشكل الخارجي من جهة ، ومن المعنى الدلالي من جهة أخرى ، «وكذلك فإن أهمية المكان الاقتصادي بالنسبة لعملية الحصول على المواد اللازمة تقاس على أساس الأسعار التي يجب أن تدفع للحصول على كميات مختلفة من المواد اللازمة إلى ذلك المكان بالذات »[30] ؛ لأن حسن انتقاء

اختيار المكان سواء كان في المجال الاقتصادي أو الأدبي على حد السواء سيؤدي إلى نتيجة إيجابية .

كما يعد المكان مصدرا لإلهام الأدباء والشعراء قبل أن يكون سلاحهم في تشكيل الأجناس الأدبية بمختلف ألوانها ، كما كان الحال بالنسبة إلى الشعر الجاهلي حيث يعد واد عبقر المتنفس الوحيد والمنطلق الرئيسي لقرض الشعر والإبداع في نظم مختلف القصائد ، إضافة إلى هذا نذكر العمل الجبار الذي قام به ابن خلدون من خلال كتابه التحفة : المقدمة الذي رسم حروفه في مغارة ، فهذا المكان على بساطته إلا أنه كان محطة هامة لتخليد أحد أمهات الكتب التي لازالت ليومنا هذا مرجعا للكثير من الباحثين في أعمالهم الفنية .

كما أصبح المكان اللبنة الأساسية في تشييد صرح الأعمال الأدبية ، بحيث أصبحت أعلام المكان متصدرة لعناوين بعض الكتب والروايات ، ككتاب أمس المكان الآن لأدونيس ، الوادي المقدس لمحمد كامل ، رواية زمكان ثروت الخرباوي ، شطح المدينة لجمال الغيطاني ، المعذبون في الأرض لطه حسين ، القدس مدينة الرب والسلام لعدنان كنعاني ، وغيرها من الكتب التي لا تحصى ولا تعد ، إذن العمل الفني الأدبي أصبح يرتكز على البنى المكانية سواء كانت موظفة في الأجناس الأدبية أو كانت الدافع المباشر للمثقفين فيه وإخراجه في أبهى صورة وأحلى حلة ، ومنه تمخضت هذه العلاقة بين المبدع والمكان بثنائية المرجعية من حيث المنطلق والواقعية من حيث التجسيد دون إقصاء الأبعاد الخيالية .

5 فوضى المصطلحات المكان ، الفضاء ، الحيّز :

المكان في مفهومه العام رقعة جغرافية ذات حدود معلومة مرهونة بإطارها الشكلي الخارجي ، أما الفضاء فهو أوسع من المكان لأنه يحويه ويتجاوزه إذا ربطنا هذه المسألة بالمفهوم الواقعي ؛ لأن الفضاء تجاوز لملموسات الحدود البينة في الأرض وتعداها إلى المجرات الأخرى والكواكب الشمسية الواسعة النطاق ، لذلك أصبحنا نسمع عن غزو الفضاء لا غزو المكان في بعض المصطلحات العلمية .

إلا أنه إذا جلنا في الحقل الأدبي فإننا نجد انصهارا جليا بين هذين المفهومين وإن حدث بعض التباين فإنه يكون نسبيا ليس إلا ، «فالفضاء الروائي والمكان الروائي مصطلحان بينهما صلة وثيقة وإن كان مفهومهما مختلفا

فالمكان الروائي حين يطلق من أي قيد يدل على المكان داخل الرواية ، سواء كان مكانا واحدا أو أمكنة عدة ، ولكننا حين نضع مصطلح المكان في مقابل مصطلح الفضاء بغية التمييز بين مفهوميهما فإننا نقصد بالمكان المكان الروائي المفرد ليس غير ، ونقصد بالفضاء الروائي أمكنة الرواية جميعها »[31] ، ومن هذا المنظور يتضح أن المكان منحصر في إطار واحد بينما الفضاء يتعداه إلى مجموعة من الأمكنة ولو كانت من منطلق أحادي القطب .

أما الحيز فهو ضيق من حيث الإطار الشكلي الخارجي ، والمفهوم الدلالي مقارنة بالمكان والفضاء ؛ لأنه يطلق على صور معزولة منحصرة الأطر على عكس المكان الذي ينال قسطا أوفر من حيث الإشارات والرموز ، لكن كما أسلفنا الذكر سابقا فإن هذه المصطلحات تبقى تحمل نفس المفاهيم والحدود خاصة مع التجاهل الكبير لمشاريع التلقي لبعض النقاد ؛ لأن الغوص في هذه المصطلحات يفضي إلى العدول عن المعنى النواة والجوهري الذي يبنى على أساسه العمل الفني سواء كان سطحيا من حيث ترادف معانيه أو عميقا منفصلا لأبعاد واتجاهات المفاهيم الثلاثة .

ويبقى الجدال عقيما في متاهة التصادم بين المصطلحات الثلاث : المكان ، الفضاء ، الحيز ، لذلك فإن المتتبع لإيجاد علاقة دقيقة بينهم يصارع مفاهيم مجهولة لا تؤدي وضيفتها المطلقة بقدر ما تحاول تقريب هذه التوجهات وتهذيب دلالاتها المرجعية ، لكن في نهاية المطاف تتعدد الأسباب والغاية واحدة ؛ لأن هذه المفاهيم مهما اختلفت فإنها تؤدي تقريبا نفس الدلالات ونفس الإشارات سواء كان ذلك في الحياة الاجتماعية أو الأدبية .

لقد أحدثت هذه المصطلحات ثورة نوعية في الحقل النقدي وأعلنت فتنة أدبية لتحديد مفهوم مطلق وشامل فالفضاء يبقى يحمل الدلالة الأوسع من حيث البناء الإيحائي اتجاه الحيز والمكان « لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريا في الخواء والفراغ بينما الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى النتوء والوزن والثقل والحجم والشكل على أن المكان نريد أن نقفه في العمل الروائي على مفهوم الحيز الجغرافي وحده[32]» فهذا التضارب في تحديد المصطلحات مرده التأثر بالغرب ومحاولة محاكاة أفكارهم التي أرادوا وضع معايير لتحديد أبعادها ومفاهيمها، غير أن التقليد هدم دعائم اللغة العربية التي تعطي للتصوير الفني والخيالي مجالا أوسع للتعبير عن المكبوتات النفسية والشعورية والتي

حاول الغرب تكبيلها ووضع قيود لها قصد انقيادها وسط حرب ثقافية وتراثية ضد العرب بطريقة غير مباشرة .

لذلك فعلى الرغم من هذا الاختلاف القائم بين المصطلحات الفضاء , الحيز , المكان إلا أن المعنى الإجمالي يصب في نهر واحد على اختلاف جزئيات شكلية لا تؤثر على العمليات الإبداعية والفنية ؛ لأن توظيف المصطلحات في المفهوم والدلالة العربية يأخذ بعدا متشبعا ومتجذرا حسب إيديولوجيات كل مبدع وكل خلفيات لكل متلقي ؛ لأن الأذواق تختلف والرغبات تتباين من ذات لأخرى على أن تكون الحجة في صالح من أراد إثبات رأيه ، لذلك تبقى إشكالية المصطلح وتحديده شوكة قائمة في الحقل النقدي العربي خاصة في ظل التقليد الأعمى والحرفي لبعض المصطلحات الغربية التي زعزعت لغة الضاد والتي في حقيقتها نُحلت معانيها ودلالتها وأعادت صياغتها في ثوب جديد أدهش المتتبعين للحركة الفنية والأدبية .

خاتمة :

من خلال هذه الدراسة الموسومة : حدود المكان المعرفية - قراءة في المفاهيم - توصلنا لنتائج نوجزها في العناصر التالية :

- تباين المفهوم الفلسفي والفني (الأدبي) لمصطلح المكان ، لأنه يستند على التفسير الميتافيزيقي له .
- المكان الفني (الأدبي) أوسع لما يعتريه من توظيف للرموز والخيال والتنوع في التصوير وهذا ما يتجلى في الرواية التي نالت حصة الأسد من حيث الحضور لخصوصتها ، خاصة أن الروائي يركز على أدق تفاصيل أنماط المكان لنقل التجربة الخيالية إلى تجربة مشهدية تصويرية .
- الفضاء من حيث الدلالة أوسع من المكان والحيّز .
- الحيّز أصغر حلقة من حيث التوظيف في الأجناس الأدبية على اختلاف ألوانها .
- مشهدية المكان تختلف من أديب لآخر حسب التنوع الثقافي ، الاجتماعي والديني .

التهميش:

1 ابن منظور ، لسان العرب ، تصحيح أمين عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار احياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ، لبنان ، 1999 ، مادة : مكن .
2 ينظر ، م ن مادة : مكن .
3 ينظر ، الزبيدي ، تاج العروس ، تح حسين نصار ، مطبعة الكويت ، 1984، مادة : مكن .
4 المصدر نفسه ، مادة مكن .
5 ، جار العلي محمد الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1982 ،ص 227 .
6 سورة مريم ، آية 16 .
7 سورة مريم ، الآية 57 .
8 سورة مريم ، الآية ، 41 .
9 حبيب مونسي ، المشهد السردي في القرآن الكريم ، مكتبة الرشيد ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 ، ص 13 .
10 المرجع نفسه ، ص 196 .
11 غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1984 ، ص6.
12 أحمد طاهر حسنين وآخرون ، جماليات المكان ، عيون المقال ، ط 2 ، 1988 ، ص 5 .
13 غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ص 8 .
14 عبد الرحمن منيف ، سيرة مدينة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1944 ، ص 5 .
15 حبيب مونسي ، فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، 2001 ، ص 13.
16 ياسين الناصير ، الرواية والمكان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، د ط ، د ت ، 1986 ، ص 16 .
17 ينظر ، طاهر حسنين وآخرون ، جماليات المكان ، ص ،(61 ، 62).
18 غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ص ،(7 ، 8).
19 محمد توفيق الضوى ، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة ، دراسة في ميتافيزيقيا برادلي ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، د ط ، د ت ، ص 48 .
20 محمد توفيق الضوى ، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر ، ص 49 .
21 طاهر حسنين و آخرون ، جماليات المكان ، ص 63 .
22 حبيب مونسي ، فلسفة المكان في الشعر العربي ، ص 12 .
23 محمد توفيق الضوي ، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة ، ص 91 .
24 ياسين الناصير ، الرواية والمكان ، ص 17 .
25 سمر روحي فيصل ، الرواية العربية البناء والرؤيا ، مقاربات نقدية ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، 2003 ، د ط ، ص 73 .
26 ياسين الناصير ، الرواية والمكان ، ص 20 .
27 غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ص ،(37 ، 38).

[28] رجاء النقاش ، أدب وعروبة وحرية ، الهيأة العامة لقصور الثقافة العامة ، القاهرة ، ط1 ، 2008 ، ص 20 .
[29] ينظر ، جون جوزيف ، اللغة والهوية ، تر عبد النور خراقي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1978 ، ص 29 .
[30] ادجار هوفر ، النظرية المكانية في اختيار المكان المناسب للنشاط تر عزت عيسى غوراني ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1، 1974 ، ص 15 .
[31] سمر روحي الفيصل ، الرواية العربية البناء والرؤيا ، ص 72 .
[32] عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 1988 ، ص ،(141 ، 142).

قائمة المراجع:

1. ابن منظور ، لسان العرب ، تصحيح أمين عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار احياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي بيروت ، لبنان ، 1999 .
2. أحمد طاهر حسنين وآخرون ، جماليات المكان ، عيون المقال ، ط 2 ، 1988 .
3. ادجار هوفر ، النظرية المكانية في اختيار المكان المناسب للنشاط تر عزت عيسى غوراني ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1، 1974 .
4. جار العلي محمد الجرجاني ، التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1982 .
5. جون جوزيف ، اللغة والهوية ، تر عبد النور خراقي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1978 .
6. حبيب مونسي ، المشهد السردي في القرآن الكريم ، مكتبة الرشيد ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 .
7. حبيب مونسي ، فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، 2001 .
8. رجاء النقاش ، أدب وعروبة وحرية ، الهيأة العامة لقصور الثقافة العامة ، القاهرة ، ط1 ، 2008 .
9. الزبيدي ، تاج العروس ، تح حسين نصار ، مطبعة الكويت ، 1984.
10. سمر روحي فيصل ، الرواية العربية البناء والرؤيا ، مقاربات نقدية ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق د ط ، ، 2003 .
11. عبد الرحمن منيف ، سيرة مدينة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1944 .
12. عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، 1988 .

13. غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط 2 ، 1984 .
14. محمد توفيق الضوى ، مفهوم المكان والزمان في فلسفة الظاهر والحقيقة ، دراسة في ميتافيزيقيا برادلي ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، د ط ، د ت .
15. ياسين الناصير ، الرواية والمكان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، د ط ، د ت ، 1986 .